توعية الأجيال أمانة

كنت في حلقة من حلقات الدرس ؛ أتناول مع طلابي تحليل نص من النصوص الأندلسية في الوصف . فطرحت سؤالاً على الدارسين : ماذا تعرف عن الأندلس ؟ ولم أتلق ردًا من الطلاب ، سوى طالب همس في تردد ، وعلى استحياء : أعتقد أنها أسبانيا الحالية ! وحاولت أن أرفده ببعض الجمل عن الأندلس مشجعا ليسترسل في الإجابة ، ولكنه توقف ، ولم يواصل ، فعرفت أن هذا كل ما يعرفه الطالب عن الأندلس ، وأعدت السؤال . ة أخرى ، علّي أجد جوابا ، فلم أر من مجيب ، وراح الطلاب ينظرون إلي في دهشة كأنهم يسمعون السؤال للمرة الأولى في حياتهم ، وكأنهم لم يمروا على مثل السؤال في المرحلة الثانوية ، أو لم يصل إلى مسامعهم من وسائل الإعلام العربية .

يا للكارثة ! جيل كامل ، وربما سبقته أجيال لم يسمع بالأندلس ولم يقرأ عنها في كتب الأدب ، ولم يلم بحضارة العرب فيها ، وكيف خاضوا البحار واعتلوا ظهور الأمواج ، واقتحموا شبه جزيرة أيبريا فاتحين ، ليقيموا حضارة قوية كانت ملء السمع والبصر .

شعرت بتقصيرنا في حق هذا الجيل ، ولم نوفه حقه ، إذ من الواجب أن يعرف أبعاد هذه الحضارة العريقة في الأندلس الرطيب والأسس التي قامت عليها ومعالم هذه النهضة المزدهرة ، وأثرها على الغرب والعالم كله ، وكيف ضاع هذا الفردوس ؟

وعبر هذه السطور أعطي موجزا عن هذه الأندلس وحضارته ، وما كانت عليه الحياة العربية آنذاك ، على ما أكتبه يقدم معلومات تنفع من يقرأ ، وأكون قد أديت ما عليّ من واجب البصرة والتعريف بماض نسيناه ، ويجب ألا ننساه وأن يظل حاضرًا في ذاكرتنا ، نأخذ منه العبر ، ونطيل فيه النظر ، علنا نستبين الرشد ، ونتلمس موضع خطانا فلا نضل في طريق الحضارة ، فلا نضيع في دروب الحياة .

تاريخ الأندلس

مرحلة ما قبل فتح الأندلس:

وصل المسلمون إلى المغرب الأقصى (مملكة المغرب الحالية) المواجه لشبه جزيرة أيبيريا، أو كما تسمى قديما الأندلس. وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ). بقيادة القائد حسان بن النعمان، والي أفريقيا وفاتحها، عام (٨٥هـ). وجاء من بعده موسى بن نصير الذي توجّه من مصر إلى القيروان مكملاً ما بدأه سابقه.

وقام موسى بمجهود كبير في تثبيت دعائم الدين الإسلامي في سكان الشمال الأفريقي (البربر) وحرص جاهدا على تقوية البحرية الإسلامية، متخذا من القيروان قاعدة ينطلق منها الجنود الفاتحون، فدخل كثير من البربر في الإسلام وأصبحوا فيما بعد ركيزة اعتمد عليها القائد العربي طارق بن زياد في فتوحاته ومعاركه.

استولى المسلمون على طنجة ذات الموقع المهم بين القارتين الأوروبية والأفريقية عام (٨٩هـ/ ٧٠٨م)، وحوّلها موسى بن نصير إلى مركز عسكري لتموين الحملات باتجاه المناطق المجاورة.

الفتح الإسلامي للأندلس

أرسل موسى بن نصير القائد الشاب طارق بن زياد من طنجة مع جيش صغير من البربر والعرب . عبر المضيق الذي سمي على اسمه، فهزم القوط الغربيين وقتل ملكهم لذريق (Roderic or Rodrigo) في معركة جواداليتي.أو معركة وادى برباط في عام ٩٢ هـ .

وظلت الأندلس بعد ذلك خاضعة للخلافة الأموية كإحدى الولايات الرئيسة إلى أن سقطت الخلافة الأموية سنة (١٣٢هـ)، واتجه العباسيون إلى استئصال الأمويين. وتمكن عبد الرحمن بن معاوية -عبد الرحمن الداخل- أن يفلت من قبضة العباسيين، فهرب إلى أخواله في الشمال الإفريقي، وأقام عندهم فترة من الزمن، ثم فكر في دخول الأندلس ليبتعد عن العباسيين. فراسل الأمويين في الأندلس.

بحلول عام ٧١٨ استولى المسلمون على معظم أيبيريا .

التوسع الإسلامي

واصل المسلمون التوسع بعد السيطرة على معظم أيبيريا لينتقلوا شمالاً عبر جبال البرنيه حتى وصلوا وسط فرنسا وغرب سويسرا.

حكام الأندلس الأمويين هم بالترتيب:

- عبد الرحمن الداخل الملقب (صقر قريش) - حتى عام ١٧٢ هجرية.
- هشام الأول بن عبد الرحمن - من عام ١٧٢ إلى عام ١٨٠ هجرية.
- الحكم بن هشام - من عام ١٨٠ إلى عام ٢٠٦ هجرية.
- عبد الرحمن الأوسط بن هشام - من عام ٢٠١ إلى عام ٢٣٨ هجرية.

- محمد بن عبد الرحمن - من عام ٢٣٨ إلى عام ٢٧٣ هجرية.
- المنذر بن محمد - من عام ٢٣٨ إلى عام ٢٧٥ هجرية.
- عبد الله بن محمد - من عام ٢٧٥ إلى عام ٣٠٠ هجرية.
- عبد الرحمن الثالث الناصر - من عام ٣٠٠ إلى عام ٣٥٠ هجرية.
- الحكم بن عبد الرحمن - من عام ٣٥٠ إلى عام ٣٦٦ هجرية.
- هشام الثاني بن الحكم - من عام ٣٦٦ إلى عام ٣٩٩.

ملوك الطوائف:الأ ـلس في القرن الخامس الهنجري

بـدأ عصـر ملـوك الطوائـف بالأنـدلس عـام (٤٢٢هـ) عنـدما أعلـن الـوزير أبـو الحـزم بـن جهـور سـقوط الدولـة الأمويـة بالأنـدلس، وكـان هـذا الإعـلان بمثابـة إشارة البدء لكل أمير من أمراء الأندلس ليتجه كل واحد منهم إلى بناء دويلة صغيرة على أملاكه ومقاطعاته، ويؤسس أسرة حاكمة من أهله وذويه، وبلغت هذه الأسر الحاكمة أكثر من عشرين أسرة أهمها:

- بنو عباد بإشبيلية (٤١٤هـ - ٤٨٤هـ).
- بنو جهور في قرطبة (٤٢٢هـ - ٤٤٩هـ).
- بنو حمود بمالقة (٤٠٧هـ - ٤٤٩هـ).
- بنو زيري بغرناطة (٤٠٣هـ - ٤٨٣هـ).
- بنو هود بسرقسطة (٤١٠هـ - ٥٣٦هـ).
- بنو رزين بالسهلة (٤٠٢هـ - ٤٩٧هـ).
- بنو ذي النون بطليطلة (٤٠٠هـ - ٤٧٨هـ).
- بنو الأفطس في بطليوس (٤١٣هـ - ٤٨٧هـ).

- بنو عامر في بلنسية ١٠١٦-١٠٨٥ م.

دولتا المرابطين والموحدين

بسبب ضعف دول الطوائف عن الدفاع عن التراب الأندلسي ضد الهجوم الأسباني وسقوط طليطلة في أيدي الأسبان. طلب الأندلسيون المعونة من قائد المرابطين في المغرب الأمير يوسف بن تاشفين أن يهب لمساعدة الأندلس وانتهت مساعدته بهزيمة كاسحة للأسبان في موقعة الزلاقة واستعادة بعض المدن لكنه فشل في استعادة طليطلة والقضاء على ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس تابعة لدولة المرابطين في الأندلس الذين دافعوعن الأندلس ضد الأسبان في عدة مواقع إلا أنهم فشلوا في الدفاع عن سرقسطة بقيام الثورة في المغرب بقيادة الموحدين وانهيار دولة المرابطون تحولت تبعية الأندلس إلى الموحدين الذين حملوا راية الدفاع عن الأندلس في عدة مواقع أشهرها معركة الارك ولكن جيوش الموحدين ما لبث أن هزمت في موقعة العقاب على الرغم من ضخامتها وكبرها مما تسبب في انهيار دولة الموحدين نهائيا و مع انهيار الحكم الموحدي في الأندلس بدأت مرحلة جدية من الانهيار في الأندلس.

بدايات الضعف في الأندلس :

يرى المؤرخون الأسبان أنه في ٧١٨ بدأ ضعف الأندلس وذلك في معركة كوفادونجا أو مغارة دونجا وفيها انهزم ابن علقمي اللخمي شر هزيمة من قوات "بلايه"، وانتهت بتأسيس أولى الإمارات الفرنجية في شمال الأندلس[١].

معركة بلاط الشهداء :

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشه وخرج باحتفال مهيب ليعبر جبال البرانس واتجه شرقاً ليضلل المسيحيين عن وجهته الحقيقية، فأخضع مدينة "أرل" التي خرجت عن طاعة المسلمين، ثم اتجه إلى "دوقية"، فانتصر على الدوق انتصاراً حاسماً، ومضى الغافقي في طريقه متتبعاً مجرى نهر "الجارون" فاحتل "بردال" واندفع شمالاً ووصل إلى مدينة "بواتييه". في بداية غزو جنوب فرنسا.

ثم هُزم المسلمون أمام شارل مارتل وقتل قائدهم وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا وحفظت المسيحية كديانة سائدة فيها.

الاستيلاء على طليطلة :

بعد أن ظلت الدولة الإسلامية في الأندلس بضعا من الزمن متماسكة موحدة بدأت تقام ممالك فرنجية في شمال إسبانيا المحررة مثل ممالك "قشتالة" و"أراجون" و"مملكة ليون" و"الباسك" قامت دولة بني ذو النون في "توليدو" (طليطلة) وبدأ صراع مع ملك"سرقسطة" ابن هود ولجأ الطرفان يطلبان مساعدة ملوك إسبانيا المسيحيين وكان هؤلاء يساعدون المسلمين علي بعض مقابل الحصول علي مال أو قلاع أو أراض أو مدن واستمر نزاعهما وبعد فترة صراعات بين البيت القشتالي انتهي بوحدة مملكتي قشتالة وليون تحت صولجان "الملك الفونسو السادس" وبعد أن استتب له الأمر فرض الحصار علي "توليدو" في ١٠٨٤ ولم يقم أحد بمساعدة إخوانهم المسلمين إلاَّ المتوكل ابن الأفطس الذي أرسل جيشا كبيرا لنجدة توليدو لكنه تعرض لهزيمة ساحقة ماحقة من الجيش المسيحي واستمر الحصار ٩ شهور إلى أن استبد الجوع بالناس ولم تفلح محاولات المسلمين الوصول

لتسوية ، ولم يرض الفونسو سوي بتسلم المدينة كاملة وفعلا تم ذلك في ١٠٨٥ وتوجه إلي المسجد الكبير الذي حوله إلي كاتدرائية وصلي فيه قداس الشكر وصارت العاصمة لملكة قشتالة الفرنجية وتم استردادها وتم منح المسلمين كافة الحرية لمغادرة المدينة أو البقاء فيها وحرية التصرف في أملاكهم.

نهاية الممالك الإسلامية في الأندلس :

انتفض المسيحيون لإرجاع أرضهم و تحريرها من المسلمين ، فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ ، وأشبيلية عام ١٢٤٨ وكان هذا بداية النهاية بسقوط دولة بني الأحمر في غرناطة سنة ١٤٩٢ اتحدت مملكة ليون وقشتالة مع مملكة أراجون واستطاع الملك فيرناندو والملكة إيزابيلا، استرجاع الممالك العربية في الأندلس الواحدة تلو الأخرى إلى أن سقطت في أيديهم غرناطة آخر قواعد المسلمين سنة ١٤٩٢.

ما بعد السقوط :

وبدأت محاكم التفتيش في التعذيب والقتل والنفي وبدأت هنا معاناة أهل الأندلس من المسلمين ومن اليهود فقد كانت محاكم التفتيش تجبرهم على التنصير أو الموت وقد تمسك أهل الأندلس بالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني و حسب الرواية القشتالية الرسمية،لم يُبد الأندلسيون رغبة في الاندماج في المجتمع النصراني و بقوا في معزل عنه، يقومون بشعائرهم الإسلامية و يدافعون عنها بكل تفان. و حتى لا يصطدموا بمحاكم التفتيش لجئوا إلى ممارسة التقية فأظهروا النصرانية و أخفوا الإسلام، فكانوا يصلون و يصومون... كل ذلك خفية. عن أعين الوشاة و المحققين.

وهكذا ضاع فردوس الأندلس:

ولنلق نظرة على حياة الأندلس المترفة ، وما كان فيها من رخاء وازدهار وحضارة ومظاهر نعمة وعيش رغيد :

من الناحية الاجتماعية:

أُفتن الناس في أنواع الطعام والغناء والطرب، وانشغلوا عن الاستعداد للجهاد، وكان من سن فيهم هذه السنة "زرياب" فأشغل الناس بابتكاراته في عالم الطعام واللباس، فلكل فصل نوع من الطعام واللباس. ولكل مجلس آداب وتقاليد ولكل حفلة طرب وغناء و(موسيقا) بمختلف الألحان . ولقد تصدى العلماء لمحاربة الترف والإسراف .

من الناحية الاقتصادية:

نمت الزراعة نمواً مزدهراً، فتنوعت أشجار الفواكة والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز. كما نظم أقنية الري وأساليب جر المياه ، وجعل تقويما للزراعة لكل موسم (ومنها انتقلت الزراعة إلى أوروبا). وفي الصناعة جعلت المناجم، وطور أنواعها، الذهب والرخام والفضة والرصاص والنحاس، وتطورت صناعة الجلود، ومراكز خاصة لصناعة السفن وآلاتها، وصناعة الزيتون والأدوية، وفي زمنه ظهرت الأسواق الخاصة للبضائع فهناك سوق للنحاسين، وسوق للزهور والشحوم وسوق للزيتون.

من الناحية الثقافية:

إنّ الأشياء الداخلية من قصر الحمراء في إسبانيا مزيّنة بتصاميم الزخرفة العربية.

صارت قرطبة مركزاً للعلوم وإلا آداب، وانتشرت الثقافة وكثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، وبلغ عدد الكتب "٤٠٠٠٠٠" كتاب في مكتبة واحدة هي (مكتبة الحكم)، وبلغ عدد المكتبات "٧٠" مكتبة. ووضعت لها فهارس دقيقة وتصانيف عديدة، كما ظهر النساخون الذين كانوا يقومون بدور المطابع في عصرنا وظهر المجلّدون لتجليد الكتب والعناية بها وحفظها، وكان "عبد الرحمن الناصر" يُعرف بحبه للعلم والعلماء، وكان من أشهر العلماء القاضي عبد الله محمد بن محمد الذي اخذ العلم من مائتين وثلاثين شيخاً، كما ظهر القاسم بن الدباغ الذي نقل العلم عن مائتين وستة وثلاثين شيخاً، ولم يكتف بما أخذ من الأندلس بل سافر إلى المشرق لينهل من علومه، وكان من بين العلماء الأندلسيين الذين قدموا المشرق الإسلامي. و برز ابن عطية في التفسير، كما اشتهر في الفقه: الباجي وابن وضاح وابن عبد البر، وابن عاصم والمنذر بن سعيد في الفقه والحديث، وظهر بالفلسفة ابن رشد وابن مسرة القرطبي وبرز في اللغة ابن سيده صاحب المعجم، وأبو علي القالي صاحب الأمالي الذي تلقى تعليمه في بغداد ثم رحل إلى الأندلس فبلغ في ذلك اللغة شأناً بعيداً هناك، وكتب ابن قوطية في التاريخ، وبرز فيها شعراء كثيرون مثل:

ابن هانئ الأندلسي :

الشاعر الرقيق ومتنبي المغرب هو ابن هانئ الأندلسي أو أبو القاسم محمد بن هانئ بن سعدون الأزدي الأندلسي(يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة) الملقب

بمتنبي الغرب لأنه كان أشعر شعراء المغرب العربي على الإطلاق (وهو معاصر للمتنبي). ولد أبوه هانئ بقرية من قرى المهدية بإفريقية (تونس حاليا) وكان شاعرا أديبا فانتقل إلى الأندلس. ولد ابن هانئ بأشبيلية ونشأ بها وتعلم بها الشعر والأدب، واتصل بصاحب أشبيلية وحظي عنده. واتهمه أهلها بمذهب الفلاسفة وفي شعره نزعة إسماعيلية بارزة، فخرج إلى البلاد المغربية، ونمي خبره إلى المعز الفاطمي فاستدعاه، فلما انتهى إليه وأقام عنده في المنصورية بقرب القيروان، بالغ في مدحه بغرر المدائح وتُحُب الشعر. كما امتدح أيضا جوهر الصقلي، الذي فتح مصر للمعز، وتوفي في رجب ٣٦٢ هـ. وقيل أنه وُجد في سانية من سواني برقة مخنوقا بتكّة سراويله ولما وصل خبر وفاته للمعزّ وهو بمصر تأسف عليه وقال:"هذا الرجل، كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يُقدّر لنا ذلك."[١] قيل فيه:

إن تكن فارسا فكن كعلي ... أو تكن شاعرا فكن كابن هاني

كل من بدَعيّ بما ليس فيه ... كذّبتْه شواهدُ الامتحان

وقيل إنه ذو قريحة شاعرية ، ويجمع في شعره بين شجاعة المتنبي وتعبير أبي تمام ومعاني البحتري وفلسفة المعري فهو شاعر غربي أندلسي حذا حذو شعراء الشرق لذا فهو شاعر متفرد تتجلى فيه المقدرة الشعرية والصناعة اللفظية الفائقة .

ومن شعره :

ولمْ أرى شيئاً مثلَ وصلِ أحبّتي

شِفاءً ولكن كان بُرؤكَ لي أشفى

وكيـــفَ اتّراكـــي فيـــك بثّـــاً ولوعَـــة
ولـــم تتـــرك رحمـــاً لقـــومي ولا عطفـــا
أمنـــتُ بـــكَ الأيـــامَ وهـــي مخوفـــة
ولـــو بيـــديكَ الخلـــدُ أمّنتنـــي الحتفـــا

ويقول في المديح :

هـــذا الشـــفيعُ لأمّـــةٍ يـــأتيْ بهـــا
وجُـــدُودُهُ لجـــدُودِها شُـــفعاء
هـــذا أمـــينُ اللهِ بـــينَ عبـــادهِ
و بـــلادهِ إنْ عـــدتِ الأمنـــاء
هـــذا الّـــذي عطفـــتْ عليـــهِ مكـــة
وشـــعابها و الـــرُكنُ والبطحـــاء
هـــذا الأغَـــرُ الأزهَـــرُ المتـــألقُ المـــ
ـــتَدَفّقُ المُتَـــبلّجُ الوضّـــاء
فعليـــهِ مـــن سِـــيما النبـــيّ دَلالَـــة
وعليـــهِ مـــن نـــورِ الإلـــهِ بَهـــاء

ويقول معتزلا :

(صـــبٌ يـــذوبُ إلـــى لقـــاء مُذيبِـــهِ)

صبٌّ يـذوبُ إلـى لقـاء مُذيبِـهِ ... يستعذبُ الآلام مِنْ تعـذيبهِ

عمّى هواهُ عـن الوشـاةِ مُكتمـاً ... فجرَتْ مدامعُهُ بِشَـرْحِ غريبـه

كم لائمٍ والسـمعُ يدفـعُ لَوْمَـهُ ... والقلـبُ يـدْفعُ قلْبَـهُ بوجيبـه

ملكَ القلوب هوى الحسان فقل لنـا ... كيفَ انتفـاعُ جسـومنا بقلوبـه

وبم السلوّ إذا بدا لي مثـمراً ... خوطٌ يميسُ على ارتجاج كثيبـه

والشـوقُ يَزْخَـرُ بَحْـرُهُ بِقَبولـهِ ... ودبوره و شماله و جنـوبه

وبنفسي القمر الذي أحيـا الهـوى ... وأماتَهُ بطـلوعِـهِ وغـروبه

قرّنوا بورد الخد عقرب صُـدغه ... وذَرَوْا ترابَ المسك فوق تريبـه

والعين حيرى مـن تـألق نـوره ... والنفس سكرى من تضوع طيبه

في طرفه مرض، ملاحتـه التـي ... ألقَـتْ علـيّ أنينَـهُ بكروبـه

أعيا الطبيب علاجه ، يـا سـحرهُ ... أنّـيكَ صَرْفٌ عن علاجِ طبيبـه

إني لأنكـره إذا أنْسَـى الـوغى ... قلبَ المحبِّ المحضِ ذكر حبيبه

لسان الدين بن الخطيب الشاعر المؤرخ الطبيب ، ذو الوزارتين:

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب شاعر وكاتب ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس .

- ولد في فاس عام ٧١٣ هـ /١٣١٣م .
- انتقلت العائلة إلى غرناطة حيث دخل والده في خدمة السلطان أبي الحجاج يوسف، وفي غرناطة درس لسان الدين الطب والفلسفة والشريعة والأدب.

ولما قتل والده سنة ٧٤١ هـ في معركة طريف كان مترجماً في الثامنة والعشرين، فحل مكان أبيه في أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجيّاب. ثم توفي هذا الأخير بالطاعون الجارف، فتولى لسان الدين منصب الوزارة.

ولما قتل أبو الحجاج يوسف سنة ٧٥٥ هـ وانتقل الملك إلى ولده الغني بالله محمد استمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة وبقي ابن الخطيب وزيراً.

ثم وقعت الفتنة في رمضان من سنة ٧٦٠ هـ. فقتل الحاجب رضوان وأقصي الغني بالله الذي انتقل إلى المغرب وتبعه ابن الخطيب وبعد عامين استعاد الغني بالله الملك وأعاد ابن الخطيب إلى منصبه. ولكن الحسّاد، وفي طليعتهم ابن زمرك أوقعوا بين الملك وابن الخطيب الذي نفي إلى المغرب حيث مات قتلاً سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م.

برع في الشعر، وتميز أسلوبه بالرصانة وجمال الصياغة، ونُقِشت أشعاره على حوائط قصر الحمراء بغرناطة.

ومن شعره :

الصبر إلا في هواك حميد
الخطب صعب والمرام بعيد
يا أيها القمر الحجازي الذي
تجلى بغرته الدياجي السود
وحدت شخصك في الفؤاد لعله
ينجيه من نار الجوى التوحيد
وجعلت حبك مذهبا وشريعة
قد لدته يا حبذا التقليد

إن نالـــت الشـــهداء جنـــات العلـــى

ولهـــــــــم نعـــيم عنـــدها وخلـــود

فلقـــد شـــهدت بـــأن قربـــك جنـــة

حقـــا وإنـــي بـــالغرام شـــهيد

يامن تشابه منـــه فـــي ضـــعف القـــوى

خصـــر وطـــرف ســـاحر وعهـــود

جسمي ولحظك فـــي الســـقام تشـــاكا

والله يعلـــــم أينـــــا المفـــــؤود

إن كنت تنكر مـــا ألاقـــي فـــي الهـــوى

فالوجـــه قـــاض والـــدموع شـــهود

أصـــبحت فـــي شـــغل بحبـــك شـــاغل

لا العـــــذل ينهـــــاني ولا التفنيـــــد

لا العـــــذل ينهـــــاني ولا التفنيـــــد

تهفو الصبا ســـحرا فأســـتجفي الصـــبا

وأغـــص بالسلســـال وهـــو بـــرود

وأميل عـــن ظـــل الأراكـــة ضـــاحيا

ورواقهـــا رحـــب الجنـــاب مديـــد

يا عهد عين الـــدمع كـــم مـــن لؤلـــؤ

للـــدمع جـــدت بـــه عســـاك تعـــود

تســـري نواســـمك اللـــدان بليلـــة

فيهزنـــي شـــوق إليـــك شـــديد

كـــم ســـاعة للأنـــس فيـــك قضـــيتها

مـــن نالهـــا مـــا فاتـــه مقصـــود

ومجـــاذب ثنـــي الذؤابـــة عابـــث

تهفـــو بخوطتـــه الصـــبا فيميـــد

الســـقم مبثـــوث علـــى لحظاتـــه

والســـحر فـــي أجفانـــه معقـــود

نادمتـــه وشـــربت فضـــل مدامـــه

واللحـــظ مـــن أكواســـه معـــدود

ولقـــد هممـــت بـــأن أروي غلـــة

لجحيمهـــا بـــين الضـــلوع وقـــود

للكـــتم بـــاب مـــرتج مســـدود

كـــم لؤلـــؤ نثـــر الحـــديث عقـــوده

نظمـــت لشـــمل الـــود منـــه عقـــود

ولـــئن تحامانـــا الرقيـــب فلـــم يـــرم

عنـــا رقيـــب للعفـــاف عتيـــد

لولا هواك أيـــا أبـــا الشـــرف الرضـــا

مـــا كـــان عنـــدي للوجـــود وجـــود

ايـــه عميـــد الـــوحي غيـــر مـــدافع

قلبـــي بمـــا يلقـــاه منـــك عميـــد

إن بنـــت فاســـمح لـــي برجـــع تحيـــة

أو غبـــت فابعـــث بالخيـــال يعـــود

يـــا ابـــن الكـــرام الهاشـــميين الألـــى

البـــاس طـــوع بنـــانهم والجـــود

رفقـــا علـــى مهـــج تملكهـــا الهـــوى

فـــالرفق مـــن أخلاقكـــم معـــدود

ولاك ســـلطان الجمـــال نفوســـنا

فـــاحكم بمـــا ترضـــى فـــنحن عبيـــد

ولا يـذكر العصـر الأندلسـي إلا وتـذكر معـه الموشـحات ، ذلـك الفـن الـذي يعكس حالة الرخاء ورغد العيش وما يكتنف المجتمع من دعة ورفاهية فهو نظام شعري تتنوع فيه القافية ، ويتغير فيه الشكل بين الغصن والقفل والخرجة ، وما يتضمنه من زينة لفظية تعكس حال البيئة الأندلسية التي كانت ترفل في وشي من النعمى والدعة .

وعن تسمية الموشح بهذا الاسم :

فالموشح مشتق من كلمة وشح أي زين ، وسميت بالموشحات لما فيها من تزيين وتنميق وتناظر وصنعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر

وعن بناء الموشح:

- تختلف الموشحات عن القصائد العربية من حيث البناء إذ يتألف الموشح من أجزاء مختلفة اصطلح النقاد على وضع مسميات لها ، وهذه الأجزاء هي:

- المطلع.
- القفل.
- الدور.
- السمط.
- الغصن.
- البيت.
- الخرجة.

ومن الوشاحين الأندلسيين المشهورين :

ابن سهل الأشبيلي، ابن بقي الأعمى التطيلي، لسان الدين بن الخطيب عبادة بن ماء السماء، ابن سناء الملك، ابن زهر، محيي الدين بن العربي، وغيرهم من الوشاحين.

وهذا نموذج موشحه، لابن سهل الأشبيلي، يقول:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس؟
إني لأنكره إذا أنسى الوغى قلبَ المحبِّ المحضِ ذكر حبيبه

فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

***

يا بدورا أطلعت يوم النوى
غرورا تسلك في نهج الغرر
ما لعيني وحدها ذنب الهوى

منكـــــم الحســـن ومـــن عينـــــي النظـــر
أجتنـــــي بالـــذات مـــكـــروه الجـــــوى
والتـــذاذي مـــــن حـــبيبـــــي بـــالفكـــــر

وإذا أشكوه وجـدى بـســمـــا كالربى و العـارض المنـبجس
وإذ يقيم القطـر فيهـــا مأتمـا وهي مـن بهجتهـا فـي عرس

مـــن إذا أمـلـــــى عـليـــه حرقـــى
طـــارحتـــــي مـــقلتـــاه الدنفـــا
تـركـــت ألحـــاظه مـــن رمـقـــي
أثـــر النمـــل علـــى صـــم الصـــفا
وأنـــا أشـــكـــره فيمـــــا بقـــى
لسـت ألحـــاه علـــى مـــا أتلفـا

***

وهو عنـدي عـادل إن ظلمـــا ونصيحي نطقه كـــالحـــرس
ليس لي في الأمـر حكـم بعـد مـا حـل مـن نفسي محـل النفس

***

غـــالب لـــي غـــالب بـــالتـــؤده
بأبـــي أفديـــه مـــن جـــاف رقيـــق
مـــا علمنـــا قـــبل ثـــغر نضـــده
أقحوانـــا عصـــرت منـــه رحيـــق
أخـــذت عينـــاه منـــه العربـــده
وفـــؤادي ســـكره مـــا إن يفيـــق

فاحم اللمـــة معســـول اللمـــى ســـاحر الغنـــج شهي اللعـــس
وجهه يتلـو الضحـــى مبتســـما وهو من إعراضـــه في عبـــس

***

أيهـــا الســـائل عـــن جرمـــي عليـــــه
لـــــي جـــــزاء الـذنب وهـــو المذنـــب
أخـــذت شـــمس الضـــحى مـــن وجنتيـــه
مشرقـــا للـــشمـــس فـيـــــه مغـــــرب
ذهبـــت دمعـــــي أشـواقـــي إلـــيـــه
وله خـــذ بلحـظـــــي مـــذهـــــــب

***

يـنبت الورد بغسرسـي كلمـــا لحظته مقلتي في الخـلـــــس
ليت شـعري أي شـيء حرمـا ذلك الورد على المـغتـــرس

***

أنـــــفدت دمعـــــي نـــــار بـــــي
ضرامتـــلتظـــي فـي كـــل حين ماتشـــا
هـــي فـــي خـديـه بـــرد وســـــلام
وهـــــي ضـــر وحريـــق فـــي الحشـــا
أتـقـــي منه علـــى حـــكم الغـــرام
أســـــدا وردا وأهـــــواه رشـــــا
قلت لمـــا أن تبـدي معـلـمـــا لحد ثـه مقلتـي فـي الخلـس

ليت شـــعري أي شـــيء حرمـــا ذلك الورد علـــى المغتـــرس

وهـــو مـــن ألحـــاظه فـــي حـــرس

أيهـــا الآخـــذ قـــلـــبـــي مغـــنـــمـــا

اجـــعـــل الوصـــل مكـــان الخمـــس

تأمل ما في الموشح من جمال تصوير، وحلاوة صياغة، وفصيح أسلوب.

ويا لجمال أندلسنا الذي ضاع !!!!!!!

وهذا موشح آخر :

زمان الوصل

لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلك إلاّ حُلُمًا ... في الكرى أو خُلسة المختلِسِ

****

إذ يقود الدّهرُ أشتاتَ المُنى
ينقلُ الخطوَ على ما يرسمُ
زُمَرًا بين فُرادى وثُنَى
مثل ما يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيا قد جلّل الرّوض سنا
فثغور الزّهرِ فيه تبسمُ

وروى النُّعمانُ عن ماء السّما ... كيف يَروي مالِكٌ عن أنَسِ؟
فكساه الحُسن ثوبًا معلمًا ... يزدهي منه بأبهى ملبسِ

في ليالٍ كتَمَتْ سرَّ الهوى
بالدُّجى لولا شموس الغُرَرَ
مال نجمُ الكأس فيها وهوى
مستقيمَ السّيرِ سَعْدَ الأثَرِ
وطَرٌ ما فيه من عيبٍ سوى
أنّه مرّ كما ج البصَرِ

حـــين لـــذا الأنـــس شـــينا أو هجم الصّبحُ هجـــومَ الحـــرَسِ
غـــارت الشهْبُ بنـــا أو ربّمـــا أثـــرت فينا عيـــون النرجـــسِ

أيّ شـــــيءٍ لامْـــــرئٍ قـــــد خلُصـــا
فيكـــون الـــرّوضُ قـــد مُكِّـــن فيـــهِ
تنهـــب الأزهـــار فيـــه الفُرصـــا
أمِنَـــت مـــن مكـــره مـــا تتّقيـــهِ
فـــإذا المـــاء تنـــاجى والحـــصى
وخـــلا كـــلّ خـــليلٍ بأخيـــه

تبصـــر الـــوردَ غيـــورًا بَرِما يكتسي من غيظه مـــا يكتســـي
وتَـــرى الآس لبيبًـــا فهمـــا يســـرقُ الســـمْع بأذنيْ فـــرَسِ

يـــا أهيْـــلَ الحـــيّ مـــن وادي الغـــضـــا
وبقلبـــي ســـــكَنٌ أنتـــم بـــهِ
ضـــاق عـــن وجـــدي بِكُـــم رحْـــبَ الفضـــا
لا أبـــالى شـــــرقَه مـــن غربـــهِ
فـــأعيدوا عَهْـــدَ أنسٍ قـــــد مضى
تُعتِقـــوا عنـــيكمُ مـــن كـــــربِـــهِ

°°°°°°°

واتّقـــوا الله وأحـــيوا مغرمًـــا يتلاشى نَفْسًـــا فـــي نَفَسِ
حـــبَس القلـــب علـــيكم كَرمـــا أفـــترضون عفـــاءَ الحـــبَسِ ؟

°°°°°°°

وبقـــلبـــي منكمـــو مقـــترِبُ
بأحـــاديث المنـــى وهـــو بعيـــد
قمـــرٌ أطلـــع منـــه المغـــربُ
شَـــقْوة المُغـــرَى بـــه وهـــو ســـعيد
قـــد تســـاوى محســـنٌ أو مـــذنبُ
فـــي هـــواه بيـــن وعْـــدٍ ووعيـــد

ســاحر المقلـــة معسول اللّمـــى جـــال فـــي النَفس مجالَ النَفَسِ
ســـدّدَ السّـــهمَ فأصمى إذ رمـــى فـــفؤادي نهْـبة المفـــترسِ

****

وكـان للشـاعرات الأندلسيات نصيب في هـذه النهضـة الشعرية ، فأدلـت كـثيرات مـنهن بـدلوها . وأخرجـت لنـا قصـيدًا عـذب اللفـظ . جميـل الصـورة حلو الصياغة من رقيق الحاشية ، ومن شواعر الأندلس :

- عائشة القرطبية .
- نزهون الغرناطية .
- حفصة بنت حمدون الحجارية .
- بثينة بنت المعتمد بن عباد .
- حسانة التميمية .
- مريم بنت يعقوب الأنصارية .

ومنهن :

الشاعرة حمدونة :

هي حمدونة بنت زياد المؤدب نشأت في وادي آش بالقرب من غرناطة ولقبت بشاعرة الأندلس وكان للبيئة والطبيعة التي نشأت فيها تأثيرًا قويًا على أسلوبها في الشعر فقد رسمت أجمل الصور وهي تصف واديها (وادي آش) الذي نشأت وترعرعت فية وخلعت علية من احساسها ومشاعرها الرقيقة أجمل مايوصف بة واد فنتشد في وصف ذلك الوادي قائلة :

وقانا لفحةُ الرمضاء وادٍ
سقاهُ مُضاعف الغيثُ العميم
حللنا دوحةُ فَحَنا علَيْنا
حنوَّ المُرضِعاتِ على الفَطيم
وارشَفَنا على ظمأٍ زُلالاً
ألذُّ من المَدامةِ للنَّديم
يصدُّ الشَّمسَ انَّى واجَهَتْنا
فيحجُبُها ويأذن للنسيم
تروغ حصاه حاليةُ العذارى
فتَلمَسُ جانبِ العقدِ النظيم

وفي قصيده أخرى تصف واديها الجميل بالقول:

أباح الدمعُ أسراري بِوَادي
لهُ للحسنِ أثارٍ بَوَادي
فمن نهرٍ يطوفُ بكُلِّ روضٍ

ومـــن روضٍ يـــــــرفُ بكُـــلِّ وادي
ومـــن بـــينِ الضّبـــــاء مَهـــاةُ أنـــسٍ
سَـــبَتْ لُبّـــي وقَـــد ملَكـــت فُـــؤادي
لهـــا لحـــظٌ تـــرقّـــدهُ لأمـــــرٍ
وذاك الأمـــــرُ يمنعنـــي رُقـــادي
إذا سَدّلـــــت ذوائبُـــــها عليهـــــا
رأيـــتُ البَـــدرَ فـــي أفُـــقِ السّـــوادِ
كـــأن الصـــبح مـــاتَ لـــهُ شقيـــقٌ
فمـــن حُـــزن تَسَـــربلَ بالســـــوادِ

ولّادة بنت المستكفي :

ولّادة بنت المستكفي أميرة أندلسية وشاعرة عربية من بيت الخلافة الأموية في الأندلس، ابنة الخليفة المستكفي بالله تعالى . اشتهرت بالفصاحة والشعر، وكان لها مجلس مشهود في قرطبة يؤمه الأعيان والشعراء ليتحدثوا في شؤون الشعر والأدب بعد زوال الخلافة الأموية في الأندلس.

- ولدت في قرطبة عام ٩٩٤ هـ / ١٠٩١م
- كانت أمها جارية إسبانية اسمها سكرى و قد ورثت منها بشرتها البيضاء وشعرها الأصهب وعينيها الزرقاوين. وكانت تخالط الشعراء في زمانها وتجالسهم بل وتنافسهم.
- أحبها ابن زيدون وكتب فيها نونيته المشهورة .
- وقد عمرت عمرًا طويلاً، ولم تتزوج .

ومن شعرها :

ألا هَـــل لنـــا مـــن بعـــد هـــذا التفـــرّق
ســـبيلٌ فيشـــكو كـــلّ صـــبّ بمـــا لقـــي
وقـــد كنـــت أوقـــات التـــزاورِ فـــي الشـــتا
أبيـــتُ علـــى جمـــرٍ مـــن الشـــوق محـــرق
فكيـــفَ وقـــد أمســـيت فـــي حـــال قطعـــة
لقـــد عجّـــل المقـــدر مـــا كنـــت أتّقـــي
تمـــرُّ الليـــالي لا أرى البـــين ينقضـــي
ولا الصـــبر مـــن رقّ التشـــوّق معتقـــي
سـقى اللّـه أرضـاً قـد غـدت لـك منـزلاً
بكـــلّ ســـكوب هاطـــل الوبـــل مغـــدق

****

وكما كان الأندلس يغص بالشعراء والأدباء ، فقد كان يموج بالعلماء والفلاسفة والمبدعين في شتى المجالات ، ومن هؤلاء العلماء البارزين .

ابن رشد (فيلسوف العرب)

وهو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي وكنيته أبو الوليد " الحفيد " المولود في قرطبة عام (٥٢٠- ٥٩٥ -1198-1126م ، من أسرة عرفت بالعلم والجاه .

- وابن رشد ظاهرة علمية مسلمة متعددة التخصصات، فهو فقيه مالكي وقاضي القضاة في زمانه.

وقد برع في الطب تفوق على أساتذته حتى أن أستاذه ابن زهر قال عنه:

-"ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس".

- وهو فيلسوف عقلاني، ترجم أعمال أرسطو للمسلمين.

- وهو أيضا فلكي له أعمال فلكية جليلة.

- كما كان نحويا لغوياً محدثاً بارعاً يحفظ شعر المتنبي.

أما سمائه وخلقه :

فقد كان متواضعاً، جم الأدب، حلو المعشر، راسخ العقيدة يحضر مجالس حلفاء الموحدين وعلى جبينه أثار ماء الوضوء.

وابن رشد من أهم فلاسفة الإسلام، فقد دافع عن الفلسفة وصحح أقوال علماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابي في فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو- عينه أبو يعقوب خليفة الموحدين عام ١١٨٢م طبيبا له ثم قاضيا في قرطبة،لكن الحكمة والسياسة وعزوف الخليفة الجديد أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٩٨ - ١١٨٤) عن الفلاسفة، بالإضافة إلى دسائس الأعداء والحاقدين جعل المنصور ينقلب على ابن رشد، قاضي القضاة وطبيبه الخاص، ويتهمه مع ثلة من مبغضيه بالكفر والضلال ثم قام بحرق جميع مؤلفاته الفلسفية وحظر الاشتغال بالفلسفة والعلوم جملة، ما عدا الطب، والفلك، والحساب.

وبعدها عاد الخليفة فرضي عن أبي الوليد ابن رشد وألحقه ببلاطه، حتى توفي في عام١١٩٨م في مراكش.

علي بن حزم الأندلسي

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي والأصح أنه عربي من أكبر علماء الأندلس . ولد في قرطبة عام ٣٨٤ هـ وهو إمام حافظ. فقيه ، ومتكلم، أديب، وشاعر، وناقد محلل، بل وصفه البعض بالفيلسوف.

- عمل وزيرًا لبني أمـ ـ، قامـ عليه جماعة من المالكية وشُرد عن وطنه.

توفي سنة ١٠٦٤ م، في منزله في أرض أبويه .

كان ابن القيم شديد التتبع لآثار وكتب ابن حزم، وكان يصفه بمنجنيق العرب، أو بمنجنيق الغرب. وكانت الناس تضرب المثل في لسان ابن حزم، فقيل عنه:

« سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان »، فلقد كان ابن حزم يبسط لسانه في علماء الأمة وخاصة خلال مناظراته مع المالكية في الأندلس، وهذه الحدة أورثت نفورًا في قلوب كثير من العلماء عن ابن حزم وعلمه ومؤلفاته، وكثر أعداؤه في الأندلس ، واستطاعوا أن يؤلبوا عليه المعتضد بن عباد أمير أشبيلية، فأصدر قراراً بهدم دوره ومصادرة أمواله وحرق كتبه، وفرض عليه ألاّ يغادر بلدة أجداده وألا يفتي أحد بمذهب مالك أو غيره، كما توعد من يدخل إليه بالعقوبة، وهناك توفي ولما فعلوا ذلك بكتبه تألم كثيراً فقال وهو يُحرَّقُ مؤلفاته:

إن تحرقوا القرطاس لن تحرقـوا الـذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يقـيم معـي حيـث استقلت ركـائبي

وينزل إن أنزل ويـدفن فـي قبـري

• قال عنه ابن خلكان :

« كان حافظا عالما بعلوم الحديث مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر وكان متقنا في علوم جمة عاملاً بعلمه زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة ، متواضعا ذا فضائل وتأليف كثيرة".

• مؤلفاته :

هو أكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري - كتاب طوق الحمامة في الأدب ، وألف كتبا كثيرة في الفقه وفي أصوله ومنها :

- جوامع السيرة نشر عدة مرات .
- رسالة في القراءات المشهورة في الأمصار.
- رسالة أسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد من العدد .
- رسالة أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا .
- رسالة جمل فتوح الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم.
- الإحكام في أصول الأحكام .
- النبذة الكافية في أحكام أصول الدين وهو مختصر للأحكام .
- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات .
- إبطال القياس والرأي والتقليد .

- رسالة ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل .

• حجة الوداع .

وبعد فهذه هي الأندلس وما كان فيها من حضارة وازدهار ، وقد ضاعت فصارت حلما نسترجع ذكراه بين الحين والحين ، ولم يبق منه إلا طيف يراوحنا .

رحم الله أيام الأندلس .